

بولس الخلاص من التوب

وهو فصل من كتاب: «عدة الصابرين»

للإمام

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيس الجوزي

ت ٧٥١ هـ رحمه الله

تعليق

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى به

خالد بن عبد الله الكندي

بسم الله الرحمن الرحيم

للعامة ابن قبر الجوزية

ح) عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر

بواعث الخلاص من الذنوب. / محمد بن ابي بكر قيم

الجوزية .- الرياض ، ١٤٣٨هـ

٦٤ ص؛ ١٢ × ١٧ سم

ردمك: ٩ - ٤٥٢٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الايمان (الإسلام) ٢- الوعظ والارشاد ٣- المعاصي

والذنوب أ- العنوان

١٤٣٨/٧١٥٩

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٧١٥٩

ردمك: ٩ - ٤٥٢٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بولحة الخلد من الزنوب

وهو فصلٌ من كتاب: «عدة الصابرين»

للإمام

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيس الجوزية

ت ٧٥١ هـ رحمه الله

تعليق

عبد الرزاق بن عبد الرحمن البدر

اعتنى به

خالد بن عبد الله الكندي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله وسلّم على نبينا محمدٍ ،
وعلى آله وصحبه أجمعين ، أمّا بعد :

فلَمَّا كانت الذُّنُوبُ والمعاصي مصدرَ سُؤْمٍ وخِزْيٍ
للعبد، كان الواجبُ على كلِّ مسلمٍ ناصحٍ لنفسِهِ أن يسعى
—بعد الاستعانة بالله تعالى— في البحث عن الأمور
والأسباب التي تَدْفَعُهُ إلى مُجَانَبَتِهَا والبُعد عنها، فإنَّ هذا
بابٌ مهمٌّ جدًّا يحتاجُ المسلمُ إلى استحضاره دائمًا —وهو:
البواعثُ للخلاص من الذنوب—؛ ليسلمَ من العقابِ،
وليفوز بجزيل الثواب.

ولهذا نجد العلماء قد أوضحوا هذه البواعث التي تُعِينُ
على الخلاص من الذنوب قديمًا وحديثًا، وكان من جملةِهم
الإمام العلامة المُربِّي ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فقد كتبَ فصلًا
نفيًا في كتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ذكر فيه

عشرين باعثًا لتقوية الدين والإيمان، والخلاص من الذنوب والآثام، جمعها جمعًا متينًا، وبينها بيانًا نافعًا، فأحببتُ ذكرها في هذا المختصر والتعليق عليها بما يوضح مقاصدها، ويُجلّي معانيها، حتى يعمّ نفعها بين المسلمين، وتكون لهم باب توبة وخلص من الذنوب.

والله أسأل أن يرحم الإمام ابن القيم، وأن يرفع درجته في جنات النعيم، وأن يغفر لنا وله ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^(١).

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

(١) وأصل هذه الرسالة محاضرة ألقيتها في دولة الإمارات، في يوم السبت الموافق: ٣٠ / ١٠ / ١٤٣٤ هـ، وقد قام بعض الإخوة بتفريغها، وإعدادها للطباعة، وعرضها عليّ، فقمّت بمراجعتها وتصحيحها، وزدتُ فيها بعض الزيادات والفوائد، وجزى الله خيرًا كلَّ من شارك في تفريغها وطباعتها ونشرها بين المسلمين، وأخصُّ منهم أخي خالد الكندري على جهوده ومساعدته في إخراج الكتاب.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« فصل : وأما تقويةُ باعثِ الدين فإنه يكونُ بأمور :

أحدها: إجلالُ الله -تبارك وتعالى- أن يُعْصَى وهو يرى
وَيَسْمَعُ، ومن قام بقلبه مَشْهَدُ إِجْلَالِهِ لم يطاوعه قلبه
لذلك البتة . »

الْتَعَلُّيقُ

الباعثُ الأولُ للخلاص من الذُّنُوب :

(إِجْلَالُ اللهِ ﷻ وَإِعْظَامُهُ)

وذلك أن يشهد المرءُ في قلبه جلالَ اللهِ ﷻ وعظمته،
كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال الله ﷻ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۚ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۚ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «ما لكم لا تُعْظَمُونَ
اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ» ^(١).

وقال القرطبي رحمته الله في تفسير قوله: ﴿أَطَوَّارًا﴾: «أي
طَوَّارًا بعد طورٍ إلى تمام الخلق ... فمن فَعَلَ هذا وقَدِرَ
عليه فهو أَحَقُّ أَنْ تُعْظَّمُوهُ» ^(٢).

ومن شواهد تأثير هذا المشهد في النفوس ما جرى
للصحابيِّ الجليلِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رضي الله عنه لما قَرَعَ سَمْعَهُ بِعُضِّ
الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا بَيَانُ عَظَمَةِ اللهِ، وَقَامَ فِي قَلْبِهِ مَقَامُ
إِجْلَالِ اللهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ وَالرَّازِقُ
وَالْمُتَصَرِّفُ بِجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ دَفَعَهُ ذَلِكَ لِلْإِيْمَانِ وَدُخُولِ
الْإِسْلَامِ؛ حَيْثُ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ
بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان»، (٢٣/٢٩٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/٣٠٣).

الْخَلِيقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ ، قال: كاد قلبي أن
يطير» ^(١).

وفي لفظٍ آخر: «وذلك أوَّل ما وقر الإيمان في قلبي» ^(٢).
فالعبدُ إذا حدَّثته نفسه بارتكابِ ذنبٍ من الذُّنوبِ
فليشهدْ بقلبه جلالَ الله ﷻ وعظمتَهُ وجَبَرَوَتَهُ، وأنَّهُ
مُطَّلَعٌ على أفعاله وأقواله؛ فإذا استشعر العبدُ ذلك بقلبه
كَفَّ عن ارتكابِ الذنوب - بإذن الله - لا محالة.
قال بِشَرُّ بن الحارث الحافي: «لو تفكَّرَ الناس في عظمة
الله تعالى لما عصوه» ^(٣).



(١) «صحيح البخاري»، رقم: (٤٨٥٤).

(٢) «صحيح البخاري»، رقم: (٤٠٢٣).

(٣) انظر: «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٢/ ١٨٤).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الثاني: مشهَدُ مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، فَيُتْرَكُ مَعْصِيَتُهُ مَحَبَّةً لَهُ؛
ف«إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ»، وَأَفْضَلُ التَّارِكِ تَرْكُ الْمُحِبِّينَ،
كَمَا أَنَّ أَفْضَلَ الطَّاعَةِ طَاعَةُ الْمُحِبِّينَ، فَبَيْنَ تَرْكِ الْمُحِبِّ
وَطَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَنْ يَخَافُ الْعَذَابَ وَطَاعَتِهِ بَوْنٌ بَعِيدٌ » .

التعليق

الثاني من هذه البواعث :

(محبة الله ﷻ)

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، فإذا
أشغَلَ الْعَبْدَ قَلْبُهُ بِحُبِّ اللَّهِ ﷻ صَرَفَهُ هَذَا الْإِنْشَغَالُ عَنْ
الْوُقُوعِ فِيمَا يُغْضِبُهُ ﷻ، لِأَنَّ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبَ تُفَوَّتُ
عَلَى الْعَبْدِ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ مَحَبَةِ اللَّهِ ﷻ لَهُ بِحَسَبِ مَا

وَقَعَ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، وَلِأَنَّ الْمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ
لِلَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ** مُسْتَلْزِمَةٌ لَامْتِثَالٍ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا يُسْخِطُهُ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ولذلك قيل:

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ
هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ
إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ ^(١)



(١) تُنسَبُ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَابْنُ الْمُبَارَكِ
وغيرهما، انظر: «ديوان الشافعي» (ص ٦٧)، و«ديوان ابن المبارك»
(ص ١٥).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الثالثُ: مَشْهُدُ النِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يُعَامِلُ بِالْإِسَاءَةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ هَذَا لِئَامُ النَّاسِ، فَلِيَمْنَعَهُ مَشْهُدُ إِحْسَانِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ حِيَاءً مِنْهُ؛ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ اللَّهِ وَإِنْعَامُهُ نَازِلًا إِلَيْهِ، وَمُخَالَفَاتُهُ وَمَعَاصِيهِ وَقَبَائِحُهُ صَاعِدَةً إِلَى رَبِّهِ، فَمَلَكٌ يَنْزِلُ بِهَذَا وَمَلَكٌ يَعْرُجُ بِهَذَا، فَأَقْبِجْ بِهَا مِنْ مُقَابَلَةٍ! » .

التعليق

الأمر الثالث من هذه البواعث :

(نِعْمَ اللَّهُ ﷻ وَإِحْسَانُهُ)

فيستشعرُ العبدُ نعمَ اللَّهِ ﷻ الكثيرةَ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾، فيحذر أن يُقابلَ هذا الإحسانَ بالإساءة، فالله ﷻ يُسَبِّغُ عليه النِّعَمَ،

وهو يُقَابِلُهَا بِالْإِسَاءَةِ وَالْمَعْصِيَةِ!

وقد ذكر الإمام عبدُ الغني المقدسي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه:
«التَّوَابِينَ» قصةً عن إبراهيم بن أدهم أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ
فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنِّي مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي فَأَعْرِضْ
عَلَيَّ مَا يَكُونُ لَهَا زَاجِرًا وَمُسْتَنْقِذًا لِقَلْبِي»^(١).

فَقَالَ لَهُ: «إِنْ قَبِلْتَ خَمْسَ خَصَالٍ وَقَدِرْتَ عَلَيْهَا لَمْ
تَضُرْكْ مَعْصِيَةً، وَلَمْ تَوْبِقْكَ لَذَّةٌ!».

قَالَ: «هَاتِ يَا أَبَا إِسْحَاقَ».

فَقَالَ لَهُ: «أَمَّا الْأُولَى: فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْصِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
فَلَا تَأْكُلْ رِزْقَهُ».

فَقَالَ الرَّجُلُ: «فَمَنْ أَيْنَ أَكَلُ وَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
رِزْقِهِ؟!».

قَالَ لَهُ: «يَا هَذَا أَفَيْحُسْنُ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ وَتَعْصِيَهُ!».

(١) «كتاب التَّوَابِينَ» (ص ٢٨٥).

قال: «لا، هات الثانية».

قال إبراهيم: «وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده».

قال الرجل: «هذه أعظم من الأولى، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟!».

فقال إبراهيم: «يا هذا أفيحسُن أن تأكل رِزْقَهُ وتَسْكُنَ بلاده وتعصيه؟!».

قال: «لا، هات الثالثة».

قال إبراهيم: «إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رِزْقِهِ وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له؛ فاعصه فيه».

قال: «كيف هذا وهو مُطَّلَعٌ على ما في السرائر؟!».

قال: «يا هذا أفيحسُن أن تأكل رِزْقِهِ، وتسكن بلاده، وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟!».

قال: «لا، هات الرابعة».

قال إبراهيم: «إذا جاءك مَلَكُ الموت ليقبض روحك فقل له: أَخْرِنِي حَتَّى أَتُوبَ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَأَعْمَلَ لِلَّهِ عَمَلًا صَالِحًا».

قال: «لا يقبل مني».

قال: «يا هذا فأنت إذا لم تَقْدِرْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْكَ الْمَوْتَ لِتَتُوبَ، وَتَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْخِيرٌ فَكَيْفَ تَرْجُو وَجْهَ الْخَلَّاصِ؟!».

قال: «هات الخامسة».

قال إبراهيم: «إِذَا جَاءَتْكَ الزَّيْنَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَأْخُذُوكَ إِلَى النَّارِ فَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمْ».

قال: «لا يدعونني، ولا يقبلون مني».

قال: «فكيف ترجو النجاة إذا؟»

قال له: «يا إبراهيم حسبي حسبي، أنا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الرابع: مَشْهَدُ الغضب والانتقام، فَإِنَّ الرَّبَّ تعالى إِذَا تَمَادَى الْعَبْدُ فِي مَعْصِيَتِهِ غَضِبَ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يَقُمْ لِنُصْرَتِهِ شَيْءٌ، فَضُلًّا عَنِ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ » .

الْعَلْبِقُ

الأمر الرابع من هذه البواعث:

(غَضَبُ اللهِ ﷻ وَاِنْتِقَامُهُ)

فَاللهُ ﷻ يَسْخَطُ وَيَغْضَبُ مَن عَصَاهُ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، فَإِذَا حَدَّثَتِ النَّفْسُ صَاحِبَهَا بِالْمَعْصِيَةِ فَلْيَذْكُرْ غَضَبَ اللهِ ﷻ وَاِنْتِقَامَهُ الَّذِي لَا يَقَاوِمُهُ شَيْءٌ، فَكَيْفَ يَهَذَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ؟!

وَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿ وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ فِعْلِ مَوْجِبَاتِ حُلُولِ غَضَبِ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَسْبَابِ نِقَمَتِهِ وَسَخَطِهِ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

« الخامس : مشهَدُ الْفَوَاتِ ؛ وهو ما يفوتهُ بالمعصية من خير الدُّنيا والآخرة ، وما يحدثُ له بها من كلِّ اسمٍ مذمومٍ عقلاً وشرعاً وعرفاً ، وتزولُ عنه من الأسماءِ الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً ، ويكفي في هذا المشهَدِ : مشهَدُ فَوَاتِ الْإِيْمَانِ الذي أدنى مثقال ذرَّةٍ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفةً ، فكيف يبيعهُ بشهوةٍ تذهبُ لذَّتها ، وتبقى سوءَ معيشتيها ؟ ! تذهب الشهوةُ وتبقى الشَّقْوَةُ ، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، قال بعض الصحابة : « يُنزعُ منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظِّلَّةِ ، فإن تاب رجع إليه » ، وقال بعض التابعين : « يُنزعُ عنه الإيمان كما يُنزعُ عنه القميص فإن تاب لبسه » ، ولهذا رأى النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاريُّ في « صحيحه » الزُّنَاةَ في التنوُّرِ عُرَاةً ؛ لأنهم تعرَّوا من لباس الإيمان ، وعادَ تنوُّرُ الشهوةِ الذي كان في قلوبهم تنوراً ظاهراً يُحمي عليه في النار » .

الْعَلْبِقُ

الأمر الخامس من بواعث ترك المعاصي:

(فَوَاتُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ)

فَلَوْ عَلِمَ الْمُقَدِّمُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ كَمْ سَيَفُوتُهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ لِأَحْجَمَ عَنْهَا؛ وَمِنْ ذَلِكَ حِرْمَانُهُ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَكَمَالِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١) فِهَذَا الْعَاصِي بِفَعْلِهِ لِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ قَدْ حُرِمَ اسْمُ الْإِيمَانِ التَّامِّ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ: (مُؤْمِنٌ فَاسِقٌ)، أَوْ (مُؤْمِنٌ فَاجِرٌ)، أَوْ (مُؤْمِنٌ عَاصٍ)، وَفَوَّتَ عَلَى نَفْسِهِ خَيْرَاتٍ عَظِيمَةً فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ.

(١) «صحيح البخاري» رقم: (٢٤٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم: (٥٧).

وَمِنْ فَوَاتِ الْخَيْرِ الَّذِي قَدْ يَلْحَقُ الْعَاصِي أَيْضًا ذَهَابُ
حَسَنَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، فَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ **قَالَ** **«لَا أَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ**
أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ بِمَزَجٍ هَبَاءً مَثُورًا»،
قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ
مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: **«أَمَّا إِنْهُمْ إِيَّاهُمْ إِيَّاهُمْ، وَمِنْ**
جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ
إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا» ^(١).

قَالَ قَتَادَةُ **رَحِمَهُ اللَّهُ**: **«مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يُبْطِلَ**
عَمَلًا صَالِحًا عَمَلَهُ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الْخَيْرَ يَنْسَخُ
الشَّرَّ، وَإِنَّ الشَّرَّ يَنْسَخُ الْخَيْرَ» ^(٢).



(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» برقم: (٤٢٤٥)، وصححه الألباني
في «صحيح الجامع» برقم: (٥٠٢٧).
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢١/٢٢٦)، وذكرته مختصراً.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« السَّادِسُ : مَشْهَدُ الْقَهْرِ وَالظَّفْرِ ، فَإِنَّ قَهْرَ الشَّهْوَةِ وَالظَّفَرَ بِالشَّيْطَانِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَمَسَرَّةٌ وَفَرَحَةٌ عِنْدَ مَنْ ذَاقَ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنَ الظَّفَرِ بَعْدُوكَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ ، وَأَحْلَى مَوْقِعًا ، وَأَتَمَّ فَرَحًا ، وَأَمَّا عَاقِبَتُهُ فَأَحْمَدُ عَاقِبَةٍ ، وَهُوَ كَعَاقِبَةِ شُرْبِ الدَّوَاءِ النَّافِعِ الَّذِي أَزَالَ دَاءَ الْجَسَدِ وَأَعَادَهُ إِلَى صِحَّتِهِ وَاعْتَدَّالِهِ » .

النَّعَابِقُ

الْأَمْرُ السَّادِسُ مِنْ بَوَائِي تَرْكُ الذَّنُوبِ :

(لَذَّةُ قَهْرِ النَّفْسِ وَإِرْغَامُ الشَّيْطَانِ)

فَالنَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ هُمَا مَصْدَرُ الْإِثْمِ وَمَتَّبِعُ الشَّرِّ ، فَالْعَبْدُ إِذَا جَانَبَ الْمَعْصِيَةَ فَإِنَّهُ قَدْ قَهَرَ نَفْسَهُ ، وَأَرْغَمَ الشَّيْطَانَ ، وَذَاقَ حَلَاوَةَ الْعِزَّةِ بِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ،

وشاهد ذلك ما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمنَ لِيُنْضِي شياطينَهُ كما يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»^(١).

وقوله: (يُنْضِي) أي يُضَعِفُ وَيُهْزِلُ شيطانه، كالدَّابَّةِ التي أَهْزَلَتْهَا الْأَسْفَارُ وَأَذْهَبَتْ لَحْمَهَا؛ وذلك بتركه الشهوات وإقباله على الطاعات ومخالفته لأوامر شيطانه^(٢).

ومما يدلُّ أن النَّفْسَ والشَّيْطَانَ هُمَا مصدرُ الْآثَامِ والشرورِ أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بالاستعاذةِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ وَعِنْدَ أَخْذِ الْمُضْجَعِ؛ فقال لأبي بكر: «قل: اللهم فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» برقم: (٨٩٤٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم: (٣٥٨٦).

(٢) انظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني (٣/ ٥٢٧)، و«بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٧٩٢).

نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَهٖ، قَالَ: قُلُّهَا إِذَا أَصْبَحْتَ،
وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ» (١).

قال ابن القيم : «ذَكَرَ -النَّبِيُّ ﷺ- مَصْدَرِي الشَّرِّ؛
وهما: النفس والشيطان، وذكر مَوْرِدَيْهِ وَنَهَايَتَيْهِ؛ وهما:
عَوْدُهُ عَلَى النَّفْسِ أَوْ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ فجمع الحديثُ مصادر
الشَّرِّ وموارده، في أَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرَ وَأَجْمَعَهُ وَأَبْيَنَهُ» (٢).

فالعبدُ إِذَا اسْتَحْضَرَ هَذَا الْمَعْنَى وَتَرَكَ الْمَعْصِيَةَ قَهْرًا
لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَإِرْغَامًا لِعَدُوِّهِ الشَّيْطَانِ، وَاعْتِزَازًا
بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



(١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم: (٥٠٦٧)، والترمذي في «الجامع»
برقم: (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم: (٤٤٠٢).
(٢) «بدائع الفوائد» (٧١٨/٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« السَّابِعُ: مَشْهُدُ الْعَوْضِ؛ وهو ما وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ به من تعويض من تَرَكَ المحارمَ لِأَجْلِهِ، ونهى نفسه عن هواها، ولْيُوزَنَ بين الْعَوْضِ وَالْمُعَوَّضِ فَأَيُّمَا كَانَ أَوْلَى بِالْإِثَارِ اخْتَارَهُ وَارْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ ».

التعليق

الأمر السابع من هذه البواعث:

(الفوز بِالْعَوْضِ مِنْ اللهِ ﷻ)

فإن تركت يا عبدَ الله المعصية خوفاً من الله وطلباً لرضاه، ورعايةً للإيمان فإنَّ الله سَيَعَوِّضُكَ فِي الدُّنْيَا بِلَذَّةٍ فِي الْقَلْبِ وَسَعَادَةٍ فِي النَّفْسِ، وَبِرَكَةٍ فِي الْحَيَاةِ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،

وسيعوّضكَ في الآخرة بدخولِ الجنة، والتمتعُ بنعيمها المقيم جزاء تركك للآثام والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ»^(١).

وشواهدُ هذا الباعث في الشرع كثيرةٌ جدًّا، فإنَّ من امتنع عن شُرْبِ أُمِّ الْخَبَائِثِ - الخمر - بالدنيا عوّضه ربُّ العالمين بنهرٍ في الجنة من خَمَرٍ لم يتغيَّر طعمُهُ، بخلاف من تعاطى هذه المحرّمات واعتادَ فعلَها ولم يتبْ إلى الله عزَّ وجلَّ منها، فإنَّه سيُحرّمها في الآخرة كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم: (٢٠٧٣٩) وسنَّدهُ صحيحٌ.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٥٧٥)، ومسلمٌ، برقم: (٢٠٠٣).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الثامن: مَشْهُدُ الْمَعِيَّةِ، وهي نوعان: مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ، وَمَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، فالعامة: اِطْلَاعُ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَكَوْنُهُ بَعِيْنِهِ؛ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَالُهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْفَعُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ؛ مِنْ قِضَاءِ وَطَرِهِ، وَنَيْلِ شَهْوَتِهِ عَلَى التَّامِ، مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ إِلَى آخِرِهِ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَلَيْهَا لَذَّةُ مُنْغَصَّةٍ مُنْكَدَّةٍ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ مِنَ الْعُمُرِ؟! إِنَّمَا هِيَ كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ، أَوْ كظُلٍّ زَائِلٍ. »

الْتَعَلُّيقُ

الأمر الثامن من بواعث ترك الذنوب:

(معِيَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْخَاصَّةُ)

والمقصود بمعية الله **عَزَّ وَجَلَّ** الخاصة تلك المعية التي اختصَّها الله بعباده المتقين المحسنين الصابرين، والتي تقتضي الحفظ والنصرة والرعاية والتأييد.

فالعبد إذا دعت نفسه إلى المعصية فصَبَرَ عنها، وجاهد هواه فإنه سيفوز بهذه المعية الخاصة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن شواهد هذه المعية الخاصة قصة الثلاثة الذين آوهم المبيت إلى غار، فانحدرت عليهم صخرة من الجبل وأغَلَقَتْ عليهم الغار، فقالوا: «إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ»، وكان من كلام أحدهم: «اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَاِمْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا،

قالت: (لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ)، فَتَحَرَّجْتُ
 مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،
 وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ
 وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ»^(١)،
 فَهَذَا تَرَكَ فَعَلَ الْفَاحِشَةَ الَّتِي تَهَيَّأَتْ لَهُ أَسْبَابُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
 اللَّهِ، فَكَانَ اللَّهُ مَعَهُ بِحِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَأَنْجَاهُ ﷻ مِنَ الْهَلَاكِ
 فِي الْغَارِ.



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٢٢٧٢) - واللفظ له-، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٢٧٤٣).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« التاسع مشهد المُغَافَصَةِ ^(١) والمعالجة؛ وهو أن يخاف أن يغافِصَهُ الأَجَلُ فيأخذه اللهُ على غِرَّةٍ، فيُحَالُ بَيْنَهُ وبين ما يَشْتَهِي من لذات الدنيا، وبينه وبين ما يَشْتَهِي من لذات الآخرة، فيا لها من حَسْرَةٍ ما أَمَرَّها وما أَصْعَبَها، لكن ما يعرفها إلا مَنْ جَرَّبَها، وفي بعض الكتب القديمة: (يا مَنْ لا يَأْمَنُ على نَفْسِهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ، ولا يَتَمُّ له سرورٌ يومَ الحذرِ الحذر) ».

التعليق

الأمر التاسع من هذه المشاهد:

(الخوفُ من مِباغَتَةِ الأَجَلِ)

فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ويقول تعالى واصفًا قدوم الأجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ

(١) المُغَافَصَةُ: هي الأخذُ على غِرَّةٍ. «تهذيب اللغة» للأزهري (٦٢ / ٨).

سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١﴾، فالإنسان لا يدري متى تفجؤه
الْمَنِيَّةُ، وربما ظنَّ—وهو في حال القوَّة والشباب— أنه
يعيش سنينَ طويلة فلا يشعر إلا والموتُ داهمه فجأةً،
وكان الصحابيُّ الجليل ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيتَ
فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء»^(١).

وكان النبيُّ الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُ أصحابه
بقُدُومِ الأجلِ واقترابه ويقول لهم: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ
الذَّاتِ»^(٢) لأن هذا التذكر يشي العبدَ عن ارتكاب
الذنوب.



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٦٤١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم: (٢٣٠٧)، والنسائي في «السنن»
رقم: (١٨٢٤)، وابن ماجه في «السنن» رقم: (٤٢٥٨)، وصححه الألباني
في «الإرواء» رقم: (٦٨٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« العاشر: مشهد البلاءِ والعافية، فَإِنَّ البلاءَ في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عُوِفِيَتْ أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مَرَضَتْ أبدانهم، وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: (إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية)؛ فَإِنَّ أَهْلَ البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه، وهذا وإن كان أعظمَ البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم، والله أعلم ».

التعليق

الأمير العاشر من هذه البواعث:

(مشهد البلاء والعافية)

فالذُّنُوبُ هي أعظمُ وأخطر بلاءٍ يصيبُ المرءَ،
والعافية المطلقة إنما هي في طاعة الله ﷻ، والبعد عن

الذُّنُوبِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَسَمَ الْبَلَاءَ بِقَدَرٍ، وَالْعَافِيَةَ بِقَدَرٍ؛
ولهذا كان من أعظم الدعاء سؤال الله العافية.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ دَعْوَةٍ يَدْعُو
بِهَا الْعَبْدُ أَفْضَلَ مِنْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ»^(١).

وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا
لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»^(٢).

وكان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يوصي أصحابه وأهل بيته أن يُكثروا
من هذا الدعاء، كما قال لعَمَّةِ الْعَبَّاسِ: «يَا عَمَّ! أَكْثِرِ
الدَّعَاءَ بِالْعَافِيَةِ»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» رقم: (٣٨٥١)، وصححه الألباني في
«الصحيحة» رقم: (١١٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم: (٣٥٥٨)، وصححه الألباني في
«الإرواء» رقم: (٩١٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم: (١١٩٠٨)، وصححه
الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم: (١٥٢٣).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الحادي عشر: أَنْ يُعَوِّدَ بِاعْتِثَابِ الدِّينِ وَدَوَاعِيهِ مَصَارِعَ
الْهَوَى وَمَقَاوِمَهُ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يُدْرِكَ لَذَّةَ
الظَّفَرِ، فَتَقْوَى حِينَئِذٍ هِمَّتُهُ، فَإِنَّ مِنْ ذَاقٍ لَذَّةَ شَيْءٍ
قَوِيَتْ هِمَّتُهُ فِي تَحْصِيلِهِ، وَالْإِعْتِيَادُ لِمَآرِسَةِ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ
يَزِيدُ الْقُوَى الَّتِي تَصُدِّرُ عَنْهَا تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ نَحِذُ
قُوَى الْحَمَّالِينَ وَأَرْبَابِ الصَّنَائِعِ الشَّاقَّةِ تَتَزَايِدُ، بِخِلَافِ
الْبَرَّازِ وَالْحَيَّاطِ وَنَحْوَهُمَا، وَمَنْ تَرَكَ الْمَجَاهِدَةَ بِالْكُلِّيَّةِ
ضَعُفَ فِيهِ بَاعِثُ الدِّينِ، وَقَوِيَ فِيهِ بَاعِثُ الشَّهْوَةِ، وَمَتَى
عَوَّدَ نَفْسَهُ مَخَالَفَةَ الْهَوَى غَلِبَهُ مَتَى أَرَادَ. »

الْعَلَبِيقُ

الأمر الحادي عشر:

(تعزيز مجاهدة دواعي الشر)

فَإِنَّ مِنْ فُضَائِلِ مَجَاهِدَةِ الْهَوَى وَالشَّيْطَانِ حُصُولَ
مُنَاعَةٍ لِلنَّفْسِ مِنْهُمَا، وَبِهَذِهِ الْمَقَاوِمَةُ أَيْضًا تَضَعُفُ الرِّغْبَةُ
فِي الْمَعَاصِي وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ تَرْكُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، فَالْمُسْلِمُ إِذَا
جَاهَدَ وَقَاوَمَ دَوَاعِيَ الشَّرِّ وَبَوَاعِثَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُيسِّرُ لَهُ سُبُلَ
الْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ، بِخِلَافِ مَنْ اسْتَسْلَمَ لِدَوَاعِيَ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ
سَيُضْعَفُ عَنْ مَقَاوِمَتِهَا، وَيُصْبِحُ أَسِيرَ شَهْوَاتِهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «أَكْمَلُ النَّاسِ هِدَايَةً أَعْظَمُهُمْ جِهَادًا؛
وَأَفْرَضُ الْجِهَادَ: جِهَادَ النَّفْسِ، وَجِهَادَ الْهَوَى، وَجِهَادَ
الشَّيْطَانِ، وَجِهَادَ الدُّنْيَا، فَمَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ فِي اللَّهِ
هَدَاهُ اللَّهُ سَبِيلَ رِضَاهِ الْمَوْصِلَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَاتَهُ
مِنَ الْهُدَى بِحَسَبِ مَا عَطَّلَ مِنَ الْجِهَادِ»^(١).

(١) «الفوائد» (ص ٥٩).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الثاني عشر: كَفُّ الباطلِ عن حديثِ النَّفْسِ، وإذا مرَّت به الخواطرُ نفاها، ولا يُؤْوِيها ويُساكِنها فإنها تصير مُنَى، وهي رؤوسُ أموالِ المَفاليسِ، ومتى ساكن الخواطر صارت أمانى ثم تَقْوَى فتَصِيرُ هُمومًا، ثم تَقْوَى فتَصِيرُ إراداتٍ، ثم تَقْوَى فتصير عزمًا يَقْتَرِنُ به المراد، فدفعُ الخاطرِ الأوَّلِ أسهلُّ وأيسرُ من دَفْعِ أثرِ المقدورِ بعد وَفُوعِهِ وتركِ مُعاوَدَتِهِ».

النعليق

الأمر الثاني عشر:

(محاربة خواطر النفس الباطلة)

لِأَنَّ المعصية أولُ ما تبدأ تكون خاطرةً في النفوس، ثُمَّ تَتَطَوَّرُ لتصبح أُمْنِيَّةً، ثُمَّ تتحول إلى هَمٍّ يتحرك في القلب، وبعدها تصيرُ إرادةً سيئةً، وبعدَ هذا تَخْلُصُ لِأَنَّ

تكون عزمًا يُقَارِنُهُ فِعْلٌ لها؛ فمن الخير للإنسان أن يقطع هذه الخواطر السيئة في أول نشأتها، فإنه إن تساهل ووقع في المعصية، هان عليه فعلها مرةً تلو المرة، حتى تصير صفةً لازمةً وهيئةً ثابتةً -والعياذ بالله-.

وما أجمل المثل الذي ضربهُ الإمام أحمد رحمَهُ اللهُ لحال العبد مع الذُّنُوبِ فإنه كان يمشي بأرضٍ فيها وَحْلٌ، فجعل يَتَوَقَّاهُ، فغاصت رِجلُهُ فيه، فحاض -أي: صار يمشي في الوَحْلِ بعد ذلك دون توقُّع-، وقال لأصحابه: هكذا العبد لا يزال يَتَوَقَّى الذُّنُوبَ، فإذا واقعها خاضها^(١).



(١) «الأدب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١١٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

« الثالث عشر: قطع العلائقِ والأسبابِ التي تَدْعُوهُ إِلَى مُوَافَقَةِ الْهَوَى، وليس المرادُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ هَوَى، بَلْ يَصْرَفُ هَوَاهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَسْتَعْمَلُهُ فِي تَنْفِيزِ مُرَادِ الرَّبِّ تَعَالَى، فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْفَعُ عَنْهُ شَرَّ اسْتِعْمَالِهِ فِي مَعَاصِيهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَسْتَعْمَلُهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقِيهِ شَرَّ اسْتِعْمَالِهِ لِنَفْسِهِ وَلِلشَّيْطَانِ، وَمَا لَا يَسْتَعْمَلُهُ اللَّهُ اسْتَعْمَلَهُ لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ وَلَا بَدَّ، فَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ كَانَ لِلنَّفْسِ وَالْهَوَى، وَالْعَمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ كَانَ لِلرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ، وَالْمَالُ إِنْ لَمْ يُنْفَقْ لِلَّهِ أُنْفِقَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَالْهَوَى، وَالْجَاهُ إِنْ لَمْ يُسْتَعْمَلْ لِلَّهِ اسْتَعْمَلَهُ صَاحِبُهُ فِي هَوَاهُ وَحُظْوَةٍ، وَالْقُوَّةُ إِنْ لَمْ يَسْتَعْمَلْهَا فِي أَمْرِ اللَّهِ اسْتَعْمَلَتْهُ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ الْعَمَلَ لِلَّهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِغَيْرِهِ، وَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ الْعَمَلَ لِهَوَاهُ وَحُظِّهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَشَقُّ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ لِلَّهِ، وَهَذَا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْأَعْمَالِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَشَقُّ عَلَى الْمُنْفِقِ لِلَّهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ لِغَيْرِهِ، وَكَذَا بِالْعَكْسِ ».

الْغُلُقُ

الأمر الثالث عشر من بواعث ترك الذنوب:

(صَرَفِ الْهَوَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ ﷻ)

فَإِنَّ فِي الدُّنْيَا أَسْبَابًا وَعَلَائِقَ تَصْرِفُ هَوَى النَّفْسِ إِلَى الْبَاطِلِ وَالْمَحْرَمَاتِ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَحْرَصَ كُلَّ الْحَرَصِ عَلَى قَطْعِ هَذِهِ الْعَلَائِقِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ أَعْظَمَ الْجُحُودِ فِي صَرْفِ هَوَاهُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ ﷻ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حِينَما سُئِلَ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجَاهِدَ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ﷻ»^(١).

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ ﷻ مَنْ انْقَادَ لَهُوَاهُ مُطْلَقًا فَقَالَ: ﴿أَفْرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عَامٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٤٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم: (١٤٩٦).

قال قتادة في بيان المراد من اتَّخَذَ الهوى إلهًا: «لا يهوى شيئًا إلا رَكِبَهُ لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ»^(١).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «روضة المحييين» فصلًا في ذمِّ الهوى، وأورد فيه خمسين أمرًا تُعينُ المسلم على التغلُّبِ على هواه، وكيف يجعلُ هواه تابعًا لشرع الله، وموافقًا لما يُحِبُّه الله ويرضاه^(٢).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في أواخر هذا الفصل: «إِنَّ مخالفة الهوى تُوجبُ شرفَ الدنيا وشرفَ الآخرة، وعِزَّ الظاهرِ وعِزَّ الباطن، ومُتَابَعَتُهُ -أي الهوى- تَضَعُ العبدَ في الدنيا والآخرة، وتُذِلُّهُ في الظاهر وفي الباطن»^(٣).



(١) أخرجه الطبريُّ في «جامع البيان» (٩٣/٢١).

(٢) «روضة المحييين» (ص ٦٢٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٦٤٨).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الرابع عشر: صَرَفُ الْفِكْرِ إِلَى عَجَائِبِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا؛ وَهِيَ آيَاتُهُ الْمَتْلُوَّةُ وَآيَاتُهُ الْمَخْلُوقَةُ، فَإِذَا اسْتَوَى ذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ دَفَعَ عَنْهُ مُحَاضَرَةَ الشَّيْطَانِ وَمَحَادَثَتَهُ وَوَسْوَاسَهُ، وَمَا أَعْظَمَ غَبْنَ مَنْ أَمَكَّنَهُ أَنْ لَا يَزَالَ مُحَاضِرَ الرَّحْمَنِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ، فَرَغِبَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى مُحَاضَرَةِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ! فَلَا غَبْنَ بَعْدَ هَذَا الْغَبَنِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.»

الْتَعْلِيقُ

الأمر الرابع عشر:

(التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)

إِذَا صَرَفَ الْمُسْلِمُ فِكْرَهُ إِلَى عَجَائِبِ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سِوَاءُ كَانَ التَّفَكُّرُ بِالْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ؛ وَهِيَ كَلَامُهُ عَزَّ وَجَلَّ، الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، أَمْ كَانَ التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِهِ الْمَخْلُوقَةِ؛ وَهِيَ آيَاتُهُ

الكونيَّة، فَإِنَّ هَذَا التَّفَكُّرَ سَيَفْتَحُ لِلْعَبْدِ أَبْوَابًا مِنَ الْخَيْرِ
كثيرةً، وَسَيَشْغَلُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ بِاللَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ**؛ مِمَّا
يُبْعِدُهُ وَيُجَنِّبُهُ مُوَاقَعَةَ الْآثَامِ وَالْخَوْصِ فِي الْبَاطِلِ، كَمَا أَنَّ
هَذَا التَّأَمُّلَ يُعَدُّ مِنْ أَمْزَجِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَطْرُدُ الْوَسَاوِسَ
وَالشُّكُوكَ عَنِ النَّفْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾.

قال أبو سليمان الدَّاراني: «إِنِّي لَأُخْرِجُ مِنْ مَنْزِلِي، فَمَا
يَقَعُ بَصْرِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ عَلَيَّ فِيهِ نِعْمَةٌ، أَوْ لِي
فِيهِ عِبْرَةٌ»^(١).



(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٢/ ١٨٤).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« الخامس عشر: التَّفَكُّرُ في الدنيا وسُرْعَةُ زَوَالِهَا وقُرْبُ انقِضَائِهَا، فلا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَزَوَّدَ مِنْهَا إِلَى دَارِ بَقَائِهِ وخلودِهِ أَحْسَنَ مَا فِيهَا وأَقْلَهُ نَفْعًا إِلَّا سَاقِطُ الْهِمَّةِ، ذَنْيُ المَرْوَةِ، مَيِّتُ الْقَلْبِ، فَإِنَّ حَسْرَتَهُ تَشْتَدُّ إِذَا عَايَنَ حَقِيقَةَ مَا تَزَوَّدَهُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ عَدَمُ نَفْعِهِ لَهُ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ تَرَكَ تَزَوَّدَ مَا يَنْفَعُهُ إِلَى زَادٍ يُعَذِّبُ بِهِ، وَيُنَالُهُ بِسَبَبِهِ غَايَةُ الْأَلَمِ؟! بل إِذَا تَزَوَّدَ مَا يَنْفَعُهُ وَتَرَكَ مَا هُوَ أَنْفَعُ مِنْهُ كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِ».

الْمُتَعَلِّقُ

الأمر الخامس عشر من بواعث ترك الذنوب:

(سرعة زوال الدنيا وانقضاءها)

فالحياة الدنيا سريعة الانقضاء، كما قال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة

ثم راح وتركها»^(١).

فإذا تفكَّر الإنسان في سرعة زوالها وأنها مع ذلك دار ابتلاء وامتحان تَيَقَّنَ أَنَّ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ فِيمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، فَضْلاً أَنْ يُضَيِّعَ وَقْتَهُ فِي الْمَعَاصِي الَّتِي سَتَكُونُ وَبَالَاءَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ولذلك يقول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(٢).

وذلك أَنَّ الْغَرِيبَ وَعَابَرَ السَّبِيلِ لَا يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ فِي بِلَدِ الْغُرْبَةِ بَلْ قَلْبُهُ مَتَعَلِّقٌ بِوَطْنِهِ الْأَصْلِيِّ، وَإِنَّمَا هُمُّهُ فِي سَفَرِهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَيَرْجِعَ إِلَى وَطْنِهِ^(٣).



-
- (١) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٢٣٧٧)، وابن ماجه في «السنن» برقم: (٤١٠٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم: (٤٧٨).
- (٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٦٤١٦).
- (٣) انظر «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٢٣٥ / ١١).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« السادس عشر: تعرُّضُهُ إلى مَنْ القلوبُ بينَ أَصْبَعِيهِ، وَأَزِمَّةِ الْأُمُورِ بِيَدِيهِ، وانتهاء كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ على الدوام، فلعلَّهُ أَنْ يُصَادِفَ أَوْقَاتَ النَّفَحَاتِ كما في الأثر المعروف: (إنَّ اللهَ في أَيَّامِ ذَهْرِهِ نفحاتٍ؛ فتعرَّضُوا لِنَفحاتِهِ، واسألوا اللهَ أَنْ يَسْتُرَ عوراتِكُمْ، وَيُؤمِّنَ روعاتِكُمْ)، ولعله في كثرة تعرُّضِهِ يصادفُ ساعةً من الساعات التي لا يُسألُ اللهُ فيها شَيْئاً إِلَّا أعطاهُ، فمن أُعْطِيَ منشور الدعاء أُعْطِيَ الإجابة، فإنه لو لم يُردِّ إجابَتَهُ لما أَلْهَمَهُ دعاءَهُ، كما قيل:

لو لم تُردَّ نَيْلَ ما أَرَجُو وأُطْلِبُهُ

من جُودِ كَفِّكَ ما عَوَّدتني الطَّلَبُ

ولا يستوحش من ظاهر الحال؛ فَإِنَّ اللهَ سبحانه يُعامِلُ عبْدَهُ بمعاملةٍ مَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في أفعاليهِ، كما ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في صفاتِهِ، فإنه ما حَرَمَهُ إِلَّا لِيُعْطِيَهُ، ولا أَمْرَضَهُ إِلَّا لِيَشْفِيَهُ، ولا أَفْقَرَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُ، ولا أَمَاتَهُ إِلَّا لِيُحْيِيَهُ،

وَمَا أَخْرَجَ أَبُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا لِيُعِيدَهُمَا إِلَيْهَا عَلَى أَكْمَلِ حَالٍ،
كَمَا قِيلَ: (يَا آدَمُ لَا تَجْزَعْ مِنْ قَوْلِي لَكَ: أَخْرَجَ مِنْهَا، فَلَكَ
خَلَقْتُهَا، وَسَأُعِيدُكَ إِلَيْهَا).

فَالرَّبُّ تَعَالَى يُنْعِمُ عَلَى عَبْدِهِ بَابْتِلَائِهِ، وَيُعْطِيهِ بِحِرْمَانِهِ،
وَيُصَحِّحُهُ بِسَقَمِهِ، فَلَا يَسْتَوْحِشُ عَبْدُهُ مِنْ حَالَةٍ تَسُوؤُهُ أَصْلًا
إِلَّا إِذَا كَانَتْ تُغْضِبُهُ عَلَيْهِ، وَتُبْعِدُهُ مِنْهُ.

التَّعْلِيقُ

الْأَمْرُ السَّادِسُ عَشَرَ مِنْ هَذِهِ الْبَوَائِدِ:

(الْإِلْتِجَاءُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ)

فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ قُلُوبَ جَمِيعِ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ
أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ^(١)، وَأَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ طَوَّعَ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» بِرَقْمٍ: (٢١٤٠)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي
«صَحِيحِ الْجَامِعِ» بِرَقْمٍ: (١٦٨٥).

تدبيره وتسخيرهِ **عَزَّوَجَلَّ** سارعَ إلى الالتجاءِ إليه، وصِدِّقِ التوكلَ عليه، والاعتصامَ به لِيَقِيَهُ شَرَّ نَفْسِهِ، وَيُعِيدَهُ مِنْ مَمَّا يَسْخِطُهُ، ويَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فِي حَقِّ الصَّحَابَةِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

ولهذا جاءت السُّنَّةُ بِأَدْعِيَةٍ كَثِيرَةٍ تَحْتُ عَلَى الْإِعْتِصَامِ بِاللَّهِ **عَزَّوَجَلَّ** فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، مِنْهَا دُعَاؤُهُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(١).

قال الحافظ ابن كثير **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «الاعتصامُ بالله والتوكلُ عليه هو العِمدَةُ في الهداية، والعُدَّةُ في مُبَاةِدَةِ الْغَوَايَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرِّشَادِ، وَطَرِيقُ السَّدَادِ، وَحَصُولُ الْمَرَادِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» برقم: (١٧٦٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٨٦/٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« السابع عشر: أن يعلمَ بأنَّ فيه جاذِبين مُتضادَّين، ومُحَنَّتَهُ بين الجاذِبين، جاذِبٌ يجذبُه إلى الرفيق الأعلى من أهلِ عِلِّيِّين، وجاذِبٌ يجذبُه إلى أسفل سافلين، فكلُّما انقادَ مع الجاذِبِ الأعلى صَعَدَ درجةً، حتى ينتهيَ إلى حيثُ يليقُ به من المحلِّ الأعلى، وكلُّما انقادَ إلى الجاذِبِ الأسفلِ نَزَلَ درجةً حتى ينتهيَ إلى موضِعِهِ من سَجِّين، ومتى أَرَادَ أن يعلمَ هل هو مع الرَّفِيقِ الأعلى أو الأسفلِ فليَنظُرْ أينَ روحُهُ في هذا العالم؛ فإنَّها إذا فارَقتَ البدنَ تكونُ في الرفيق الذي كانت مُنجَذِبَةً إليه في الدنيا فهو أَوَّلَى بها، فالمرءُ مع من أَحَبَّ طبعًا وعقلًا وجزاءً، وكلُّ مُهْتَمٍّ بشيءٍ فهو مُنجَذِبٌ إليه وإلى أهله بالطبع، وكلُّ امرئٍ يَصُوبُ إلى ما يُناسِبُهُ، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾، فالنفوسُ العُلُويَّةُ تَنجَذِبُ بذاتها وهِمَمِها وأعمالها إلى أعلى، والنفوسُ السَّافِلَةُ إلى أسفل».

التعليق

الأمر السابع عشر من بواعث ترك الذنوب:

(التَّيَقُّظُ لِجَاذِبِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)

فَكُلُّ عَبْدٍ فِيهِ جَاذِبَانِ مُتَضَادَانِ؛ جَاذِبٌ يَجْذِبُهُ إِلَى الرِّفِيقِ الْأَعْلَى، وَهَنَاكَ جَاذِبٌ آخَرٌ يَجْذِبُهُ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، كَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَالشَّيْطَانِ، وَقُرْنَاءِ السُّوءِ، فَإِذَا سَارَ الْعَبْدُ مَعَ جَاذِبِ الْخَيْرِ أَفْلَحَ وَنَجَا، وَأَمَّا إِذَا تَبَعَ جَاذِبَ الشَّرِّ هَلَكَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

فَإِنْ عَلِمَ هَذَا؛ فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ نَاصِحٌ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَّقِظَ، وَيَنْظُرَ فِي جَاذِبِ الْخَيْرِ فَيَلْزِمَهُ، وَأَنْ يَنْأَى وَيَرَبَّأَ بِنَفْسِهِ أَنْ يَسْلُكَ خَلْفَ جَاذِبِ الشَّرِّ وَالْغَوَايَةِ، لِأَنَّ الْمَرْءَ سَيُحْشَرُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ كَمَا صَحَّ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).



(١) أخرجه الترمذي رقم: (٢٣٨٥)، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (٢١٤).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

« الثَّامِنُ عشر: أن يعلمَ أن تفرِغَ المَحَلَّ شَرْطٌ لنزولِ
غيثِ الرحمة، وتَنْقِيَّتُهُ من الدَّغَلِ شَرْطٌ لكمالِ الزرع،
فمتى لم يُفَرِّغِ المحلَّ لم يصادفْ غيْثُ الرَّحْمَةِ محلاً فارغاً
قابلاً ينزل فيه، وإن فرَّغَهُ حتى أَصابَهُ غيْثُ الرحمة لكنَّه
لم يُنَقِّهِ من الدَّغَلِ لم يكن الزَّرْعُ زرعاً كاملاً، بل رُبَّما غلب
الدَّغَلُ على الزرع، وكان الحكمُ له، وهذا كالذي يُصْلِحُ
أَرْضَهُ وَيُهَيِّئُهَا لِقَبُولِ الزَّرْعِ، وَيُودِعُ فيها البذر،
وَيَنْتَظِرُ نزولَ الغيث، فإذا طَهَّرَ العبدُ قلبَهُ وفرَّغَهُ من
إراداتِ السَّوءِ وخَواطِرِهِ، وبَذَرَ فيه بذرَ الذِّكْرِ والفكرِ
والمحبةِ والإِخْلَاصِ، وعَرَّضَهُ لِمَهَابِّ رِياحِ الرحمة،
وانتَظَرَ نزولَ غيْثِ الرحمة في أوانِهِ؛ كان جديراً في حصولِ
المُغَلِّ، وكما يَقْوَى الرَّجاءُ لنزولِ الغيثِ في وقته كذلك
يَقْوَى الرَّجاءُ لإصابة نفحاتِ الرَّحْمَنِ جَلَّالَهُ في الأوقاتِ
الفاضلة والأحوالِ الشريفة، ولا سِيَّما إذا اجتمعتْ هِمْمٌ،

وتساعدت القلوبُ، وعَظُمَ الجمعُ كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة، فَإِنَّ اجتماع الهمم والأنفاس أسبابٌ نَصَبَهَا اللهُ تعالى مُقْتَضِيَةً لحصول الخير، ونزول الرحمة، كما نَصَبَ سائرَ الأسبابِ مُفْضِيَةً إلى مُسَبِّبَاتِهَا، بل هذه الأسبابُ في حصول الرحمة أقوى من الأسبابِ الحسيَّةِ في حصول مُسَبِّبَاتِهَا، ولكنَّ العبدَ لجهله يَغْلِبُ عليه الشاهدُ على الغائب، والحسُّ على العقل، ولظلمه يُؤَثِّرُ ما يحكم به هذا، وَيَقْتَضِيهِ على ما يحكم به الآخر وَيَقْتَضِيهِ، ولو فرَّغَ العبدُ المحلَّ وهَيَّأَهُ وَأَصْلَحَهُ لرأى العجائب، فَإِنَّ فضلَ الله لا يَرُدُّهُ إِلَّا المانعُ الذي في العبدِ، فلو أزالَ ذلك المانعَ لَسَارَعَ إليه الفضلُ مِنْ كُلِّ صوبٍ، فتأملَ حالَ نهرٍ عظيمٍ يَسْقِي كلَّ أرضٍ يَمُرُّ عليها، فَحَصَلَ بَيْنَهُ وبين بعضِ الأرضِ الْمُعْطَشَةِ الْمُجْدِبَةِ سُكْرًا وَسَدًّا كَثِيفًا، فصاحِبُهَا يشكو الجذب والنهرُ إلى جانب أرضه!». .

التعليق

الأمر الثامن عشر :

(التخلية قبل التحلية)

يَبْنِي المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ قاعدةً عظيمةً؛ وهي أَنَّ تَفْرِغَ القلبِ من دَرَنِ الشَّرْكِ والبدعة والمعصية شرطٌ لحصول الخير والبركة، وَضَرَبَ رَحِمَهُ اللهُ لذلك مَثَلًا مَحْسُوسًا، وهو أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزْرَعَ زَرْعًا فعليه أَوَّلًا أَنْ يُنْقِيَ الأرضَ من الأدْران، وَيُهَيِّأَهَا للزراعة، فَإِنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ ستَكُونُ أرضًا صالحةً لِلإنبات والإثمار، وعليه أيضًا أَنْ يتَعَاهَدَ النبات، وَأَنْ يَحْمِيَهُ مِمَّا يَضُرُّهُ؛ فَيُبْعِدَ عَنْهُ النَّبَاتَاتِ والحشرات المؤذية، والتي قد تنخر فيه وتُثْمِرُضُهُ، وبذلك يَسْلُمَ له زرعُه وينمو خيرَ نماء.

فهكذا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُؤْمِنِ؛ فَيَجْتَهِدُ أَوَّلًا بِتَنْقِيَةِ قلبِه وتَصْفِيَّتِهِ من أنواعِ الشَّرْكِ والمعاصي؛ لِيَعْمُرَ الإِيْمَانُ فِي

قلبه ويُثْمِر، ثُمَّ يَجْتَهِدُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَعَاهُدِ هَذَا الْإِيْمَانِ
وَتَصْفِيَّتِهِ مِمَّا قَدْ يَشُوْبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ فَيَبَادِرُ إِلَى
التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا؛ لِيَزِدَّ
الْإِيْمَانُ نُمُوًّا فِي قَلْبِهِ، وَتَنْزِلَ عَلَيْهِ الرَّحْمَاتُ وَالْبَرَكَاتُ.



قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

« التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خَلَقَهُ لبقاء لا فناء له، ولعِزٍّ لا ذُلٍّ معه، وأَمْنٍ لا خَوْفَ فيه، وغَناءٍ لا فَقْرَ معه، ولذَّةٍ لا أَلَمَ معها، وكمالٍ لا نَقْصَ فيه، وامتَحَنَهُ في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعزِّ الذي يُقارنه الذلُّ وَيَعْقِبُهُ الذلُّ، والأَمْنِ الذي معه الخوفُ وبعده الخوفُ، وكذلك الغَناءُ واللذَّةُ والفرحةُ والسرورُ والنعيمُ الذي هنا مَشُوبٌ بضدِّه؛ يَتَعَقَّبُهُ ضدُّه، وهو سريع الزوال، فَعَلِطَ أَكْثَرُ الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النِّعَمَ والبقاء والعِزَّ والمُلْكَ والجاه في غيرِ مَحَلِّه، ففَاتَهُمْ في مَحَلِّه، وأكثرُهُمْ لم يظفر بما طَلَبَهُ من ذلك، والذي ظَفَرَ به إنما هو متاعٌ قليلٌ، ثم يزول عنه، والرسَلُ إنما جاؤوا بالدعوة إلى النِّعَمِ المقيم، والمُلْكِ الكبير، فَمَنْ أَجَابَهُمْ حَصَلَ لَهُ أَلَدٌ ما في الدنيا وأَطْيَبُهُ، فكان عيشُهُ فيها أَطْيَبَ من عيشِ الملوكِ فَمَنْ دُونَهُمْ، فَإِنَّ الزَّهْدَ في الدنيا مُلْكٌ حَاضِرٌ، والشيطانُ يَحْسُدُ

المؤمنَ عليه أعظمَ حَسَدٍ؛ فيحرصُ كلَّ الحرصِ على أن لا
يَصِلَ إليه، فإنَّ العبدَ إذا مَلَكَ شهوتهُ وغضبهُ فانقادا معه
لداعي الدِّين فهو المَلِكُ حقًّا؛ لأنَّ صاحبَ هذا المَلِكِ حُرٌّ،
والمَلِكُ المُتَقَادُ لِشَهْوَتِهِ وغَضَبِهِ عبدٌ شهوتهُ وغضبهُ، فهو
مُسَخَّرٌ مَمْلُوكٌ في رِيِّ مالِك، يقودُهُ زَمَامُ الشهوةِ والغضبِ كما
يُقَادُ البَعِيرُ، فالمغرورُ المخدوعُ يَقَعُ نَظْرُهُ على المَلِكِ الظاهرِ
الذي صورتهُ مُلْكٌ وباطنهُ رِقٌّ، وعلى الشهوةِ التي أولها لَذَّةٌ
وآخرها حَسْرَةٌ، والبصيرُ المُوَفَّقُ يُغَيِّرُ نَظْرَهُ مِنَ الأوائلِ
إلى الأواخرِ، ومن المَبَادِيءِ إلى العَوَاقِبِ، وذلك فضلُ الله
يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم..

النعيق

الأمر التاسع عشر:

(النعيم والعِزُّ الحقيقيُّ في دار البقاء)

إِنَّ اللَّهَ بِمَرْجِلٍ خَلَقَ لِلْعِبَادِ بَقَاءً لا فناء بعده، وعِزًّا لا

ذَلَّ فِيهِ، وَغَنَى لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَأَمْنًا لَا خَوْفَ بَعْدَهُ، وَذَلِكَ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾.

وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ امْتَحَنَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِمُتَعٍ فَانِيَةٍ، وَلِذَلِكَ مُنْغَصَّةً، وَمُلْكٍ زَائِلٍ، فَإِنْ هُوَ صَبَرَ عَنْهَا، وَاجْتَنَبَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِالنِّعِيمِ الْحَقِيقِيِّ، وَاللَّذَّةِ الدَّائِمَةِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾.

فَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ إِذَا اسْتَحْضَرَ فِي نَفْسِهِ هَذَا النِّعِيمَ الْمَقِيمَ، وَعَلِمَ أَنَّ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ الزَّائِلَةَ سَبَبٌ لِحِرْمَانِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى مَقَاوِمَتِهَا وَاجْتِنَابِهَا لِيَنَالَ الْهَنَاءَ وَالسَّعَادَةَ الدَّائِمَةَ.



قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

«العشرون: أن لا يَغْتَرَّ باعتقاده أن مَجَرَّدَ الْعِلْمِ بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود، بل لا بدَّ أن يُضِيفَ إليه بذل الجُهدِ في استعماله، واستِيفارِغِ الوُسْعِ والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروجُ عن العوائد؛ فإنها أعداءُ الكمال والفلاح، فلا أفلَحَ من استمرَّ مع عوائده أبداً، وَيَسْتَعِينُ على الخروج عن العوائد بالهرب عن مَظَانِّ الفتنة، والبعد منها، قال النبي ﷺ: «من سَمِعَ بالدَّجَالِ فليَنأ عنه»، فما اسْتُعِينَ على التَّخَلُّصِ من الشرِّ بمِثْلِ البُعْدِ عن أسبابِهِ ومَظَانِّهِ.

وهنا لطيفة للشيطان لا يتخلَّص منها إلا حاذق: وهي أن يُظْهِرَ له في مَظَانِّ الشرِّ بعضَ شيءٍ من الخير، ويدعوهُ إلى تحصيله، فإذا قَرُبَ منه ألقاه في الشَّبْكة، والله المستعان».

التعليق

الأمر العشرون وهو آخرُ هذه البواعث المباركة:

(جَهَادُ النَّفْسِ وَالتَّخْلُصُ مِنْ عَوَائِدِ السُّوءِ)

فَالْعَبْدُ إِذَا ابْتُلِيَ بِمَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي، وَاعْتَادَ عَلَى فَعْلِهَا، فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ كَامِلَ وَسْعِهِ وَطَاقَتِهِ لترك هذا الاعتیاد السَّيِّئِ، وَأَنْفَعُ مَا يَفْعَلُهُ لَذَلِكَ - بعد الاستعانة بالله **عَزَّ وَجَلَّ** - أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ لِهَذِهِ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ تَقَعُ مَعَ رَفَقَةٍ سُوِّءٍ فَالْوَاجِبُ مَفَارَقَتُهُمْ، وَإِنْ كَانَتْ تَحْصُلُ الْمَعْصِيَةَ عِنْدَ اسْتِخْدَامِ شَيْءٍ مِنَ الْأَجْهَازَةِ الْحَدِيثَةِ تَخْلَصَ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ فِي أَرْضٍ خَاصَّةٍ خَرَجَ مِنْهَا، وَغَادَرَهَا.

وَيَدُلُّ لَذَلِكَ قِصَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، وَذَهَبَ إِلَى عَالَمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَسَأَلَهُ هَلْ لَهُ تَوْبَةٌ؟ فَقَالَ لَهُ: «نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ...» ^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٤٧٠)، ومسلم، واللفظ له، برقم: (٢٧٦٦).

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رحمته الله: «فيه إشارة إلى أنَّ
التَّائبَ ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن
المعصية والتحوُّل منها كُلِّها»^(١).



(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/٥١٧).

عَلَامَةُ

هذه بواعث قِيَمَةٍ ذكرها الإمام ابن القيم رحمَهُ اللهُ ينبغي الاعتناء بها، ومجاهدة النفس على العمل بها، واستحضارها متى ما سَوَّلت النفس بشيءٍ من الباطل، لتحصل للعبد السلامة والعافية والرَّفعة في الدارين.

ويتأكَّد في هذا المقام -وفي كل مقام- كثرة الدعاء، وحُسْنُ الالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الهداية والتوفيق والاستقامة بيد الله وحده عَزَّوَجَلَّ، ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فَمَا أَحْوَجَ الْعَبْدَ إِلَى أَنْ يُكْثِرَ الدُّعَاءَ وَالِاتِّجَاءَ إِلَى
سَيِّدِهِ وَرَبِّهِ وَمَوْلَاهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، وَأَنْ يَصْلَحَ قَلْبَهُ، وَأَنْ يَثْبِتَهُ
عَلَى الْحَقِّ وَالْهَدْيِ، وَأَنْ يَعِيْذَهُ مِنْ سَبِيلِ الْهَلَاكِ
وَالرَّدَى، وَالتَّوْفِيقَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا أَجْمَعِينَ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَالثَّباتَ
عَلَى الْأَمْرِ، وَالْعَزِيْمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا مَا قَدَّمْنَا
وَمَا أَخْرَنَّا، وَمَا أَسْرَرْنَا وَمَا أَعْلَنَّا، وَمَا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا،
إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَالْهَدْيِ وَالنِّيَّةِ، وَالْحَمْدَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الباعث الأول: إجلال الله ﷻ وإعظامه	٧
الباعث الثاني: محبة الله ﷻ	١٠
الباعث الثالث: نعم الله ﷻ وإحسانه	١٢
الباعث الرابع: غضب الله ﷻ وانتقامه	١٦
الباعث الخامس: فوات الخير والفضل	١٧
الباعث السادس: لذّة قهر النفس وإرغام الشيطان	٢٠
الباعث السابع: الفوز بالعوض من الله ﷻ	٢٣
الباعث الثامن: معيّة الله ﷻ الخاصة	٢٥
الباعث التاسع: الخوف من مباغطة الأجل	٢٨
الباعث العاشر: مشهد البلاء والعافية	٣٠
الباعث الحادي عشر: تعزيز مجاهدة دواعي الشرّ	٣٢
الباعث الثاني عشر: محاربة خواطر النفس الباطلة	٣٤
الباعث الثالث عشر: صرف الهوى إلى ما يحبه الله ﷻ	٣٦
الباعث الرابع عشر: التفكّر في آيات الله ﷻ	٣٩

٤١	الباعث الخامس عشر: سرعة زوال الدنيا وانقضاؤها
٤٣	الباعث السادس عشر: الالتجاء إلى من بيده كل شيء
٤٦	الباعث السابع عشر: التيقُّظ لجاذب الخير والشر
٤٨	الباعث الثامن عشر: التخلية قبل التحلية
٥٢	الباعث التاسع عشر: النعيم والعزُّ الحقيقيُّ في دار البقاء
٥٥	الباعث العشرون: جهاد النفس والتخلص من عوائد السوء
٥٩	خاتمة
٦١	فهرس الموضوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

